مذبحة الإسكندرية

موقف الدول

ظلت إنجلترا مشتركة مع فرنسا فى موقفهما حيال مصر حتى حضور الأسطولين. وقد ظهر اشتراكهما فى العمل فيما وقع من الأحداث السابقة، كوضع الراقبة الثنائية ثم المظاهرة البحرية الأولى التى وقعت فى أكتوبر سنة ١٨٨١، ثم تقديم مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التى أدت إلى سقوط وزارة البارودى.. على أن إنجلترا قد اعتزمت بعد أن قطعت هذه المرحلة التمهدية أن تنفرد بالعمل تحقيقا لأغراضها الاستعمارية.. ولم يخف اللورد جرانفيل هذه النية عن الحكومة الفرنسية فقد أبلغ المسيو دى فريسنيه رئيس وزراء فرنسا بما يأتى: " أننا كنا سعداء بالأمس إذ شاطرنا حكومتكم رأيها حين كنا نأمل الوصول إلى نتيجة مرضية، ولكن مع الأسف ليست هذه هى الحالة الآن".

وصرح السير أدوار مالت قنصل إنجلترا العام فى مصر يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ "أنه لا يعتبر نفسه مقيدا بالوسائل المنطوية على التساهل الواردة فى مذكرة ٢٥ مايو"

وبدت نية الانفراد بالعمل من الجانب الإنجليزى بمظهر فعلى فيما بعث به أميرال الأسطول البريطانى إلى حكومته يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ينبئها بأن المصريين ينشئون بطارية يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ينبئها بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه إحدى بوارج الأسطول ويطلب إرسال بوارج أخرى، تجاه إحدى بوارج الأسطول ويطلب إرسال بوارج أخرى، فلبت الحكومة طلبه. ودل هذا العمل على نية إنجلترا احتلال مصر.

ورأى مسيو دى فريسينيه أنه يستطيع انقاذ الموقف بدعوة الدول إلى عقد

مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية، فعرض فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الأوربية الكبرى عقد هذا المؤتمر.. فلم تتردد إنجلترا فى قبول هذه الفكرة، وبادر اللورد جرانفيل وزير خارجيتها بإعلان قبولها إذ كان يعتقد أن السياسة الإنجليزية لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التى تسوغ تدخلها المنفرد فى مصرز

الوفد العثمانى الثانى

فى أثناء استقالة وزارة البارودى أرسل الخديو توفيق برقية إلى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط، للنظر فى المشكلة.. فى اليوم الثانى من شهر يونيه سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا معتمدا عثمانيا ساميا للحضور إلى مصر، وعهد إليه برآسه وفد أرسله السلطان إلى مصر لمعالجة الحالة فيها. وكان هذا جوابها على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية، فقد كان ظنها أن حضور "مندوب شاهانى" يغنى عن عقد وكذلك كانت سياستها قائمة على الجهل وقصر النظر، أسطولها تمهيدا وتأييدا لهذا التدخل، فإن الحكومة التركية توهمت أن مجرد إيفادها مندوبا ساميا كدرويش باشا يعيد وتوهمت أن عدم اشتراكها فى المؤتمر يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرا فى المسألة المصرية.

كان هذا هو الوفد العثمانى الذى جاء مصر فى أثناء الحوادث العرابية، والوفد الأول هو الذى حضر فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨١ برياسة على نظامى باشا كما تقدم بيانه ويهمنا أن تقرر أن كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو مصر، بل حضر للمظاهرة وللأعلان عن سلطة تركيا فى القطر المصرى، دون أن يعمل كلاهما أى عمل نافع فى فض الخلاف بين الخديو والجيش أو فى إنقاذ مصر من مطامع إنجلترا.

جاء الوفد العثمانى رآسة درويش باشـا فى الوقت الذى اكتمل فيه عدد البـوارج الإنجليزية والفـرنسيـة فى ميـاه الإسكندرية. . وقد كـانت رؤية هذه البوارج كافيه لإفهمامه أن الموقف جد عصيب، وأن حضوره بعنقه مندوبا عن السلطان يمكن أن يؤثر فى الموقف بإزاء تلك المدافع الضخمة الفاغرة أفواهها، وتلك المعـدات الحربيـة التى تنذر بالشـر والدمـار، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثـمانى عدته المظاهر الفارغة التى يحاط بهـا، ولا يهمه قبل كل شىء إلا الرشا والأموال التى يتطلع إليها.

كل ما فعلتـه تركيا إذن تجاه حضور الأسـطولين الإنجليزى والفرنسى أن أوفدت درويش باشا المذكور، ثم أرسلت قبل وصـوله إلى مصر تلغرافا فى ٥ يونيه بأن وزارة الخـارجية البـريطانية أبلغت السـفارة التركـية فى لندن الجنود المصرية تجرى التجـهيزات والترميمات فى حصـون الإسكندرية على نية تهديد الأسطولين الإنجليـزى والفرنسى، وأن البـاب العالى يطلب مـنعها إذا كـانت جارية. ثم أردف ذلك بتلغراف آخر فى اليوم التالى يستعجل الرد

وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجيـة البريطانية بداية التحرش بالسلطات المصرية، إذ بنى على ما زعمه الأميرال سيمور من أن السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهـة للأسطول. فكان ذلك السبب المنحل باعثا لتـركيا على طلب الكف عن هذه التـجهيـزات. ورأى عرابى إزاء هذا الإلحاح أن يـأمر بالكف عنها، وأرسل إلى الخديو كتابا بذلك فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٢ خلاصته أن هذه التجهـيزات إنما هى ترميمـات اعتيادية لا يمكن الاستـغناء عنها فى أى وقت وأنها لم تكن لقصـد شىء، بل هى ضرورية لبقاء الاسـتحكامات الواجب حفظها وتعهدها بدوام الترميم والإصلاح.

ونوه فى النهاية إلى أن استمرار وجود تلك الترميمات هو السبب الوحيد لتسكين روع الأمة المصرية وإزالة القلق الإنجليزى فى المياه المصرية وإجرائه حركات ومناورات حربية داخل الميناء وخارجه وأخذه مقاسات أعماق المياه واقتراب السفن الإنجليزية من الشواطئ أمام الاستحكامات، وأن هذه الإجراءات هى التى تعتبر تهديدات حقيقية، وهى التى هيجت أفكار الأمة المصرية وأحدثت الاضطراب، ومع ذلك فإنه حرر بوقف الترميمات المذكورة "رجاء عودة الدونانمة الإنكليزية"، وقد وقفت فعلا أعمال الترميم من ذلك الحين وأنك لترى فى موقف تركيا حيال مصر إحراجا ظاهرا لها، فإن كل الدلائل تدل على نية التحرش من جانب الإنجليز، السلطات المصرية الكف عن إجراء الترميمات بالحصون. وكان هذه الطلب تأييدا ظاهرا للسياسة الإنجليزية، ولم يكن إيفاد درويش باشا فى هذا الموقف العصيب إلا عملا عقيما لم تفد مصر منه شيئا.

وصل درويش باشا إلى الإسكندرية يوم ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى "عز الدين"، يصحبه ابنه ومعه الشيخ أحمد أسعد أحد المقربين إلى السلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة، وبعض الضباط والمأمورين.. وبلغ عدد الوفد وحاشيته ٥٨ شخصا، وقد كان كلا الفريقين يعمل على اجتذابه إلى ناحيته، وبدا هذا التزاحم منذ وصول الوافد إلى الإسكندرية، فقد أوفد الخديو على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى يصحبه حسن حلمى باشا من أعضاء مجلس الأحكام وطه لطفى باشا من الياوران لاستقباله على ظهر اليخت.

وأرسل عرابى من ناحيته يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية، ووقع

الخلاف بين الرسولين فى أثناء المقابلة. ولكن درويش باشا استقبل كليهما بالبشاشة، ونزل وصحبه بسراى رأس التين. وفى اليوم التالى ركبوا قطارا خاصا أقلهم إلى العاصمة، وقد عرجوا فى الطريق على مدينة طنطا حيث زاروا مقام السيد أحمد البدوى، يتبركون بزيارته.. ثم استأنفوا السفر إلى أن بلغوا العاصمة ونزلوا بسراى الجزيرة التى أعدت لإقامتهم حتى تنتهى مهمتهم، وبعد أن أخذوا راحتهم ذهبوا إلى سراى الإسماعيلية فقابلهم الخديو بالترحاب ورد الزيارة للمندوب العثمانى بسراى الجزيرة، على أن الخديو لم يكتم عن درويش باشا استياءه من حسن مقابلته لمندوب عرابى ومن لهجة الخطب حين قابله سراى الإسماعيلية.. فتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو.

وكانت خطة الوفد أن يتظاهر لكلا افريقين المتخاصمين (الخديو والعرابيين) أنه معه.. فمن مظاهر تأييده للعرابيين أنه طلب نحو مائتى نيشان لضباط الجيش مكافأة لهم على ولائهم وإخلاصهم للذات الشاهانية، وطلب لعرابى باشا النيشان المجيدى من الطبقة الأولى. فكان هذا علامة على رضاء الأستانة عنه وعن مسلكه، على أن درويش باشا قد انتهى إلى الإنضمام علانية للخديو...!

وظهر تحول درويش باشا إلى جانب الخديو من نصحه لعرابى بالذهاب إلى الأستانة ليقابل السلطان، وأكد له أنه سيلقى منه كل رعاية وإكرام، وقد فطن عرابى إلى عواقب هذه النصيحة، وأنه قد لا يعود من الأستانة إذا هو ذهب إليها، فاعتذر للمشير العثمانى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد. والنصيحة وأن كانت فى ذاتها ليست صادرة عن نية حسنة، ولكنا نعتقد أن

رحيل عرابى فى تلك الآونة كان خيرا من بقائه فى مصر. ومهما تكن عواقب رحيله عنها فإنها تهون إلى جانب ما حل بمصر وبعرابى ذاته من الكوارث بعد ذلك..

ولكى نقدر مبلغ ما كان لحضور درويش باشا من الأثر ومبلغ عجزه عن معالجة الموقف، يكفى أن نذكر أنه لم يكد يمضى على حضوره بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الإسكندرية المشئومة وذلك فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢، فكانت أعلانا رهيبا بإخفاف مهمة المندوب العثمانى، وقد حضر ضرب الإسكندرية يوم ١١ يوليه ثم انقلب إلى الأستانة فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ دون أن يعمل أى عمل لمنع وقوع هذه الكوارث.

بعد استقالة البارودى

كانت الحالة فى أشد الاضطراب بعد استقالة وزارة البارودى، فالوطنيون من جهة توقعوا شرا مستطيرا من مجئ الأسطولين الإنجليزى والفرنسى، وأخذوا يترقبون الحرب والقتال من ساعة إلى أخرى، والأجانب من جهة أخرى علموا أن البلاد قادمة على حرب.. فكانوا يخشون على حياتهم أن تستهدف للخطر إذا قامت الحرب المنتظرة، فمصدر الاضطراب هو فى مجئ الأسطولين، لا فى استقالة وزارة البارودى ذاتها، لأن هذه الاستقالة ما كانت لتحدث فى البلاد حدثا لو وقعت فى ظروف عادية..

فلو أنها استقالت دون أن يكون الأسطولان مرابطين فى الإسكندرية لأمكن حل الأزمة الوزارية بغير عناء كبير، أما بإعادة وزارة البارودى ذاتها، أو بتأليف، وزارة أخرى تضطلع بأعباء الحكم وتعمل على تهدئة الخواطر. ولكن وجود الأسطولين قد أوجد حالة غير طبيعية، إذ كان مجيئهما مظهرا

للتهديد والوعيد.. فبقيت مناصب الوزارة شاغرة منذ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا، ثم اضطر أن يعيد عرابى باشا إلى الحربية خوفا من انتقاض الجيش على الحكومة، وبقيت الوزارت الأخرى شاغرة.

وأخذ الأجانب يهاجرون من القاهرة والأقاليم إلى الإسكندرية، ليكونوا تحت رعاية الأسطولين وعلى مقربة منهما، فغصت مدينة الإسكندرية بالأجانب من سكانها ومن القادمين إليها من الأقاليم. وكان احتشادهم فيها من الأسباب الباعثة على تفاقم الهياج، لأن أحاديثهم كانت تدور حول اقتراب وقوع القتال وما يستهدفون له من غضب الأهلين إذا نشبت الحرب بل قبل نشوبها، لأن مجرد وجود الأسطولين فى مياه الإسكندرية وتقديم بلاغ الدولتين إلى الحكومة المصرية وإصرارهما على إجابة مطالبهما.. كل ذلك كان رمز لاعتداء الدولتين الأوربيتين على البلاد وإهاجة الخواطر.

مذبحة الإسكندرية

فى هذا الجو من اضطراب الخواطر وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الإسكندرية.. ففى يوم الأحد ١١ يونيه سنة ١٨٨٢، فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر، وقع شجار بين أحد المالطيين من رعايا الإنجليز وأحد الأهلين يدعى "السيد العجان".. كان المالطى هو البادئ فيه بالعدوان، فقد كان الوطظنى صاحب حمار ركبه المالطى وأخذ يطوف به من صبيحة النهار متنقلا من قهوة إلى أخرى، وانتهى طوافه إلى حانة "خمارة" قريبة من قهوة القزاز بالقرب من مخفر اللبان بآخر شارع "السبع بنات".. فطالبه الوطنى بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد، فجادله فى قلة الأجر. فما كان من المالطى إلا أن شهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على أثرها.

وقع هذا الحادث فى الزقاق الكائن خلف "قهوة القزاز"، فهرع رفاق القتيل إلى ذلك المكان، يريدون أن يمسكوا المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهلين من الأبواب والنوافذ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح.. فثارت نفوس الجماهير تطلب الأوربيين عامة، فأخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم فى الطرقات أو فى الدكاكين ويوسعونهم ضربا.. وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهراوات ليس غير.

وانبث الدهماء فى المدينة يستنفرون الناس للقتال، ويقتلون من يلقونه من الإفرنج ضربا بالعصى والهراوات، ونهبوا دكاكين شارع السبع بنات. وامتد الهياج من هذا الشارع إلى الشارع الإبراهيمى وإلى شارع الهماميل وشارع المحمودية وجهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية "رأس التين" وغيرها من الشوارع التى يقطنها الأوربيون أو يمرون منها، وقد قتل كثير منهم أمام الضبطية إذ كانوا قادمين من الترسانة عائدين من زيارتهم للبوارج الإنجليزية والفرنسية، وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون الرصاص من النوافذ على الأهلين، فقتل من الجانبين خلق كثير.

وإذا كان البادئ بالعدوان أحد الرعايا "المالطيين" وقد شاهده بعض الحاضرين يلوذ بالفرار إلى منزل يسكنه مواطنوه، فقد أرسل قسم اللبان إلى المستر كوكسن قنصل إنجلترا فى الثغر لإيفاد أحد موظفى القنصلية لكى يخرج المعتدى من ذلك المنزل. فحضر المستر كوكسن بنفسه أثناء اشتداد الهياج، فأصيب بضربة حجر وعصا جرح بسببها جرحا بليغا. وجرح أيضا فى ذلك اليوم قنصل اليونان وقنصل إيطاليا، فكانت إصابة القناصل من مظاهر خطورة الحالة.

وكان عمر باشا لطفى محافظ المدينة حين بدأت الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة، فأبلغه أحد موظفى الضبطية نبأ الشجار الذى وقع بين الوطنى والمالطى. وكان ذلك فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، فأوفد حسين بك فهمى وكيل المحافظة إلى مكان الواقعة لفض الخلاف، ثم جاء بعد ربع ساعة نبأ باستفحال الفتنة وتجسمها، وأن السيد بك قنديل مأمور الضبطية مريض فى منزله. فذهب بنفسه إلى جهة الواقعة بشارع السبع بنات.

وهنالك أدرك خطورة الفتن ورأى إزدحام الشارع بالمتجمهرين، فطالب من إسماعيل باشا كامل قومندان الجنود بالإسكندرية إرسال المدد من الجند لوقف الهياج.. فتباط الأميرلاى مصطفى بك عبد الرحيم قائد الألاى الخامس الذى كان مرابطا برأس التين والقائم مقام سليمان سامى داود قائد الألاى السادس الذى كان بباب شرقى فى إرساله داود قائد الألاى السادس الذى كان بباب شرقى فى إرساله الجند، ولم يحضروا إلا فى الساعة الخامسة مساء قبل المغرب وانتهت الفتنة فى مغرب الشمس، فساد المدينة سكون رهيب، إذ لزم الناس بيوته، وخلت الطرقات من المارة، وانقضى المليل والناس فى وجل وفزع.

وبلغ عدد القتلى فى هذه الحادثة ٤٩ منهم ٣٨ من الأجانب والباقون من الأهلين.

اجتماع القناصل بالإسكندرية

اجتمع القناصل مساء يوم الحادثة، وكان من بينهم الكابتن مولينو من ضباط الدارعة الإنجليزية "انفنسبل"، وقد عهد إليه الأميرال سيمور أن ينوب

عن المستر كوكسن فى إدارة القنصلية عقب إصابته فى الحادثة. وحضر الاجتماع محافظ المدينة، وتداولوا فيما يجب اتخاذه لإعادة النظام وتهدئة الخواطر، فصرح كبار ضباط الجيش بالإسكندرية أنهم متكفلون بحفظ الأمن.. على أن لا يتدخل الأسطولان فى الأمر، فطلب القناصل من قائدى الأسطولين أن لا يتخذا تدابير ظاهرة، ولكن بعض الزواق الإنجليزية شوهدت فى منتصف الليل قادمة من إحدى بوارج الأسطول ترسو على شاطئ الميناء الشرقى.

وكان مجيئها تنفيذا لتعليمات الأميرال سيمور الذى أصدر أمره بأن تخرج البارجة "سوبرب" من الميناء الغربى وترسو خارج الميناء الشرقى، وأن ترسل بعض الزواق إلى البر لنقل النساء والأطفال إلى البارجة، فاعترض الضباط على هذه الوسيلة، إذ رأوا فى حضور الزواق الإنجليزية إلى البر ما يدعو إلى هياج الجمهور والجند، فوعد نائب القنصل البريطانى بإبعاد الزواق عن البر، وانفض الاجتماع الأول على ذلك.

وقع النبأ فى العاصمة

كان عرابى بالقاهرة حين وقعت الحادثة، وقد علم بها تلغرافيا قبل الساعة الخامسة مساء، فأسف لها أسفا عظيما.. ولما ذاعت أخبارها فى العاصمة مساء ١١ يونيه قوبلت بالاستياء والاستنكار فى الدوائر الوطنية، لما توقعه العارفون من عواقبها الوخيمة. وكانت ضربة موجهة إلى العرابيين، لأن أقل ما تدل عليه أن زمام الأمن قد أفلت من أيديهم، وأنها تتخذ حجة ضدهم على أنهم غير قادرين على ضبط الأمن وصيانة الأرواح، وبخاصة بعد أن أعيد عرابى إلى وزارة الحربية وتعهد بكفالة الأمن والنظام.

وكانت هذه المذبحة نذيرا للعرابيين بأن البلاد قادمة على خطر بكير، إذ لم يكن خافيا أن السياسة الإنجليزية قد دبرت الوسائل لوقوعها تحقيقا لأغراضها فى مصر. ولكن العرابيين لم يقدروا العواقب حق قدرها. وقد اتخذ القناصل هذه الحادثة ذريعة لمخاطبة ولاة الأمور فى العاصمة بلهجة شديدة طالبين حماية الأجانب وأموالهم فى البلاد.

وقررت الحكومة مساء ١١ يونيه إيفاد لجنة إلى الإسكندرية للنظر فى أمر تلك الحادثة والكشف عن أسبابها والتحقيق مع المتهمين فيها.

وعقد الخديو اجتماعا فى سراى عابدين صبحية يوم الاثنين ١٢ يونيه، حضره محمد شريف باشا ودرويش باشا المندوب العثمانى وقناصل فرنسا وإنجلترا والنمسا وألمانيا وإيطاليا والورسيا الذين جاءوا يطلبون تأمين رعاياهم على أرواحهم وأموالهم.. فجرت المابحثة فى هذا الاجتماع فيما يجب اتخاذه حيال حوادث الإسكندرية، فاستقر الرأى على إعطاء وكلاء الدول السياسيين الضمانات الوثيقة التى تكفل إعادة الأمن إلى نصابه، وصيانة أرواح الأجانب وأموالهم.

ومن أهم الضمانات امتثال عرابى باشا لأوامر الخديو، فدعى عرابى إلى حضور الاجتماع، وخوطب فى الأمر فأجاب بالقبول، وزاد أن تعهد للمتجتمعين بمنع ما من شأنه إثارة الخواطر، كالاجتماعات العامة وإنعقاد الجمعيات وإلقاء الخطب ونشر المقالات المهيجة، وأبان أن فى مقدوره بمساعدة جنوده تأييد الأمن وإقرار الراحة والطمأنينة، وتعهد الخديو بإصدار الأموار الكفيلة بتهدئة الخواطر. وقال درويش باشا أنه يأخذ على عاتقه تنفيذ الأوامر الخديوية بأن يشترك مع عرابى فى إنفاذها ويشاركه المسئولية فى هذا الصدد، فاكتفى وكلاء الدول ظاهرا بهذه العهود، وانفض الاجتماع.

وإنفاذا لهـذه العهـود أصدر الخديـو أمرا إلى عرابى باشـا والإسكندرية والأقاليم بزيادة الدقة والسهر على الأمن العام.

وأصدر الخديو أمـرا بهذا المعنى إلى المحافظين والمديرين، ونشـر عرابى فى ذلك اليوم أعـلانا بدعوة الجمـهور إلى الأخلاد إإلى السكيـنة والطمأنينة. وإذا أمرا آخـر وجهـه إلى قواد لإقرار الأمن الأمن والراحـة والنظام. وزادت الحكومة قوات الجـيش فى الإسكندرية لتكون كافية لقـمع كل فتنة تحصل بين الأجـانب والأهلين، فـأنفـذت إليـها الألاى الثـانى والأى الرابع وعـهـدت بقيـادتهما إلى طلبـة باشا عصمت الذى صـار منذ ذلك الحين قومندانا عـاما لقوات الجيش فى الثغر.

نزوح الأجانب عن البلاد

وكانت الأنباء التى يتناقلهـا الأجانب مجمعة على أن الحـرب لا محالة ناشبـة فى مصر.. وكانوا يتـوقعون من أن لآخر أن تطلق البـوارج الإنجليزية والفرنسية قنابلها على المدينـة، وأن قوات الدولتين لا تلبث أن تهاجم البلاد. وفى هذه الحالة لا يأمنون على أنفسهم إذا نشبت الحرب أن يـستهدفوا لانتقام الأهلين.. ومن هنا جاءت فكرة نـزوح الأجانب عن البلاد، فأخـذ القاطنون منهم بالإسكندرية يهاجرون منها بحرا، والأجانب فى القاهرة والأقاليم يفدون إلى الإسكندرية للإقلاع منها إلى الخارج، وبدا رحيل الأوربيين عن البلاد فى اليوم التالى لمذبحـة الإسكندرية، وكثرت جموعهم النازحـة فى الأيام التالية. ونزل المهاجرون منهم إلى السفن التى كـانت راسية فى الميناء ينتظرون أن تقلع بهم.

وبلغ عدد الراحلين منهم يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٨٢ أكثر من عشرة آلاف

مهاجر نزلوا إلى البحر متفرقين فى البواخر والسفن الشراعية، ولم تعارض إدارة جوازات السفر ولا الجمارك أحدا منهم فى النزول إلى البحر، فكثرت جموع المهاجرين يحملون أموالهم وامتعتهم، وامتلأ الميناء بالسفن المقلة لهم، وظلت الهجرة مستمرة فى الأيام التالية حتى بلغ عدد الراحلين لغاية يوم ١٨ يونيه . . . ٣٢ مهاجر وبلغ عددهم ستين ألفا قبيل ضرب الإسكندرية، فكان هذا السيل المتدفق نذيرا بما يتمحض عنه الجو من الأحداث الجسمية.

ومما ساعد على تعاظيم سيل الهجرة أن قناصل الدول رغبوا إلى رعاياهم الرحيل عن البلاد، وأفضوا إليهم بأنهم يتوقعون حوادث أشد هولا مذبحة ١١ يونيه، وأن الحرب وشيكه الوقوع، فسارعوا إلى الهجرة. وأعدت كل دولة سفنا لنقل رعاياها، فهرع الفقراء والمعوزون إلى النزول إليها، وأخذ الموسرون منهم أماكنهم فى البواخر المعتادة، وتسلل الأوروبيون من كل ناحية فى القطر المصرى قاصدين الميناء، حتى خيل لمن يرى جموعهم الراحلة أنه لم يبق منهم فى البلاد إلا نفر قليل.

وزاد الناس شعورا بخطر الموقف انتقال الخديو فجأة من العاصمة إلى الإسكندرية، فقد اعتزم السفر إليها عقب حادثة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢، وحجته تهدئة الخواطر فيها، وسافر إليها يوم الثلاثاء ١٣ يونيه، وودعه على المحطة عرابى باشا مراقبة أحوال القاهرة والسهر على الأمن العام فيها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بمنع وقوع أى حادث، وصحبه فى سفرة درويش باشا المندوب العثمانى

من المسئول عن المذبحة؟

لاشك أن حضور الأسطولين الإنجليزى والفرنسى هو السبب الأول لحوادث ١١ يونيه سنة ١٨٨٢، فقد هاج حضورهما الخواطر وأوغر صدور المصريين على الأوربيين عامة لما فى مجيئهما من معنى التحدى والعدوان، كما أنه أغرى الأوربيين بالوطنيين لشعورهم بأن الأسطولين إنما جاءا لحمايتهم ولاذلال المصريين.

كتب الشيخ محمد عبده (الاستاذ الإمام) فى هذا الصدد يقول:

"إن الحكومة الإنجليزية على عادتها فى اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل، واستدبرت طالع الحق، واستقبلت وجه مطمعها، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناواة، واندفعت لتسيير مراكبها إلى مياه الإسكندرية تهديدا لحكومة الخديو وعدوانا عليه، ثم نفخ بعض رجالها فى أنوف ضعفة العقول من الأجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة إنجليزية، وأقامت منها حكومة انكلترا حجة فى العدوان على الأراضى الخديوية، ولو أن بصيرا نظر إلى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر من يوم ورود قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الأعمال وانتظام المصاح وبين ما كان بعده".

فالمسؤلية العامة تقع على كاهل السياسة البريطانية والفرنسية. أما المسؤلية الخاصة فى وقوع المذبحة بالذات فتستطيع أن تتبينها من أن أول من أشعل الفتنة مالطى من رعايا بريطانيا وأخ لخادم القنصل البريطانى، ولا يمكن أن يكون هذا من قبيل المصادفات، والسياسه البريطانية هى التى استغلت

الحادثة وهولت فيها وجسمتها لتتذرع بها إلى التدخل المسلح فى شؤون البلاد، وقد وصفها المسيو فريسينيه رئيس وزارة فرنسا فى ذلك الحين وصفا لا مبالغة فيه ولا تهويل، إذ قال بأنها من الحوادث العارضة التى تقع أحيانا فى الثغور التى سكنها عدة أجناس، وشبهها بالفتنة التى حصلت قبل عام فى مرسيليا بين العمال الإيطاليين والفرنسيين.

وزارة إسماعيل راغب باشا

بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى أى من ٢٧ مايو.. فلما وقعت حوادث ١١ يونيه اتجهت الأنظار إلى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التى استهدفت لها البلاد.

وكان الخديو قد بارح القاهرة ووصل إلى الإسكندرية عقب مذبحة ١١ يونيه كما أسلفنا، فسعى قنصلا ألمانيا والنمسا لديه باتفاقهما مع مندوب تركيا للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزيرا للحربية. فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزارة الجديدة. فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر وغيرهم، وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة. فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابى من الجفاء. وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ومندوب تركيا من جديد، واتصلوا بعرابى وتفاوضوا معه فى هذا الشأن، واستقر رأيهم بعد استطلاع رأيه على النصح للخديو باختيار إسماعيل راغب باشا لتكشيل الوزارة. وعلى ذلك ألف راغب باشا الوزارة وفيها عرابى وزيرا للحربية كما كان ولو حسنت نيات إنجلترا لأمكن لوزارة راغب باشا أن تعيد الأمور إلى نصابها وتزيل الآثار السيئة التى نجمت عن حوادث ١١ يونيه، فإن هذه الحوادث قد وقع مثلها فى

بعض ثغـور البلاد الأوربيـة دون أن يترتب عليـه سلب استـقلالهـا وانتـهاك حقوقها. ولكن إنجلترا التى دبرت مذبحة الإسكندرية أبت ألا أن تستغلها دون نزاهة ولا هوادة حتـى تصل إلى احتلال مـصر، وكان من تدابـيرها ألا تمكن وزارة راغب باشا من تهدئة الخواطر وإقرار الأمن فى نصابه..

وأغلب الظن أنها لم تكن تبغى تأليف الوزارة لكى تبدو البلاد فى حالة غير عادية وتتخذ من ذلك ذريعة إلى التدخل فى شؤون البلاد.. فلما تألفت قابلتهـا السياسة الإنجليزية بالجـفاء وعدم الثقة والغض من قـدرتها على إعادة الأمن إلى أدوار ما ليت قنصل بريطانيا العام الإسكندرية يوم ٢٧ يونيه وأناب عنه المتسر كارترايت الذى شهد ضـرب الإسكندرية. وغادر المدينة أيضا لمتسر كوكسن القنصل البريطانى وأوعزت الحكومة البريطانية إلى السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الإنجليـزى بالإمتناع فى حضور جلسـات مجلس الوزراء. وهذه علائم ونذر تبئ عما كانت تبيته السياسة الإنجليزية من إثارة الحرب والقتال.

***